الخاتمـــــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فها هو البحث في لبناته الأخيرة، طوّفت فيه مع علمٍ من أعلام الشعراء، وفحلٍ من فحولهم، مسلطاً الضوء على جوانب شعره، متتبعًا خصائصه الفنية التي امتاز بها.

وقد بدأت هذا البحث بتمهيدٍ عن أبي ذؤيب الهذلي، فقدمت نبذةً عن حياته وشعره، كما تناولت في هذا التمهيد: الأسلوبية؛ من حيث مفهومها واتجاهاتها.

أما فصول البحث فقد كان أولها مختصاً بالمستوى اللفظي، وبدأ بمبحث عن "المادة (الجذر اللغوي)"؛ حيث تتكرر كثير من المواد في النصوص، وأمطت اللثام عما تضفيه هذه الظاهرة عند الشاعرمن بعد في الدلالة، ثم تناولت في مبحث "النوع": الأسماء والأفعال، مستنداً في بيان أثرهما الدلالي في النصوص على الفرق بينهما، ثم بيّنت بعض أدوار حروف المعاني كذلك لدى الشاعر، يلي ذلك: مبحث "الصيغة"، الذي تشعب الحديث فيه إلى: الهيئة التي تكون عليها الكلمات، وقد وجدت أن أوضحها لدى الشاعر: صيغ المبالغة، وتؤدي دورًا في تعميق الدلالة وتأكيدها، كما تتكرر أحيانًا بعض الصيغ لدى الشاعر، ثم عرضت للتنكير و التعريف، مبينًا – من خلال التحليل - ما لهما من أثر دلالي وصوتي، وعرجت على أنواع المعارف والدلالات المرتبطة بها، من خلال تتبعها في النصوص، وقد اعتمدت في كل ما سبق الانطلاق من الألفاظ إلى المدلول الذي تضيفه إلى النصوص.

أما الفصل الثاني: فقد كان مختصاً بالمستوى التركيبي، وقد عرضت فيه للجملة الاسمية والفعلية، محللاً بعض النصوص من خلال الاعتماد

obeikandl.com

على الفرق بين الجملتين، كما عرضت للنفي والإثبات في النصوص، والتوكيد وما يفيده من تعميق المعنى، والشرط وجوابه وما يضيف من دلالة، وكونه من الروابط بين الجمل.

ثم تناولت الجمل الخبرية والإنشائية، مبينًا ما يخبر عنه الإنشاء من نشاطٍ انفعالي نفسي، من خلال أساليبه المتعددة، كما عرضت في نماذج محللة إلى تناوب الخبر والإنشاء في النصوص، وبعد ذلك انتقلت للحديث عن التقديم والتأخير، إذ يدل تغيير الترتيب الأصلي للكلام عن غرضٍ ما يقصد إليه الشاعر، وقد شاع لدى الشاعرالتقديم لا سيما الجار والمجروروالظروف، وتناولت الذكر والحذف، والذكر هو الأصل، وقد يكون لغرضٍ بلاغي، وقد يتكرر ذكر كلمة معينة، أما الحذف فينطوي على أبعاد دلالية ثرية، ناتجة عن إعمال الفكر في المحذوف، وعرضت لأساليب القصر، التي أبرزت أفكار الشاعر لأنها تقوي المعنى وتؤكده، مشيرًا إلى الفرق بين القصر بالنفي والاستثناء والقصر بإنما، ثم تحدثت عن الروابط بين الجمل، وقد امتاز الشاعر بحسن توظيفه للروابط و لا سيما الفاء، التي تسهم في ترتيب الأحداث وتتابع الإيقاع ورسم المشاهد، وقد لفت الشاعر نظر بعض النقاد القدماء إلى تلك الظاهرة في عينيته، وختمت مباحث هذا الفصل بحديثٍ عن الجملة الحالية، وقد لحظت أنها تسهم في رسم أبعاد بعض المشاهد المتحركة لدى الشاعر.

وجاء الفصل الثالث: ليتناول المستوى التصويري لدى الشاعر، فبدأ بتناول الصور الجزئية (التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية والتعريض)، وقد انطلقت من هذه الصور لبيان أثرها في الفكرة من خلال النصوص المحللة، ثم تناولت الصور الكلية (التي تتكون من مجموعة صور جزئية)، وتتشكل منها مشاهد كلية، وختمت هذا الفصل بالحديث عن ظاهرة التفصيل في الصورة، وذلك من خلال ذكر عدد من الصفات للمشبه

به، ومن خلال أسلوب " الصورة الاستدارية " الذي أكثر منه الشاعر مقارنةً بغيره من الشعراء؛ ولذلك فهو يشكل عنده سمة أسلوبية امتاز بها، وقد بيّنت فيما سبق من مباحث تآزر الوسائل اللغوية الأخرى مع الصور، ليبرز كل ذلك أفكار الشاعر الكلية.

وفي الفصل الرابع: تناولت المستوى الصوتي الإيقاعي، و بدأت مباحث هذا الفصل بالحديث عن تناسب الصوت مع المعنى؛ حيث وظّف الشاعر الأصوات في العديد من نصوصه لخدمة المعنى، وفي المبحث التالي حول الجناس بيّنت أنه لم يرد الجناس التام لدى الشاعر، وإنما ورد غير التام، وقد أسهم الجناس في تدعيم النواحي الإيقاعية في النصوص، كما لم يخل من إضافاتٍ دلالية تتمثل في التأكيد على معنىً معيّن من خلال ورود الكلمتين المتجانستين، أما جناس الاشتقاق فقد تم تناوله في مبحث "المادة (الجذر اللغوي)"، ثم تناولت التصريع، الذي لا يدل – بصفةٍ عامة – على شيءٍ ما يرتبط بالغرض، لكن قد يرتبط التصريع بالتجربة ضمن القصيدة التي يرد فيها – حسب ما بيّنت في موضعه -، وكذلك الحال فيما يتعلّق بالبحر الشعري؛ إذ ليس هناك ارتباطٌ بين بحورٍ بعينها و أغراضٍ معينة، و إنما قد يوجد ارتباطٌ ما بين البحر (الوزن) والمعنى في قصيدةٍ ما، وكذا القافية؛ إذ لا صحة لارتباط حروف رويٍّ بعينها ببعض الأغراض، لكن قد يوجد ضمن القصيدة أثر دلالي ناشئ عن أصوات القافية، وقد أحصيت حروف الروي لدى الشاعر، وتبيّن من خلال الإحصاء أن شعره يكاد يكون كله على قوافٍ مطلقة.

ثم التعليق على الظواهر الأسلوبية في شعر أبي ذؤيب، وقد انقسمت هذه الظواهر إلى ظواهر متعلقة بالألفاظ، وهي: الغريب الذي ارتبط بتمكن الشاعر من ناصية اللغة وانغلاقه تحت راية القبيلة؛ ولذلك فقد أسهم ورود الكلمات الغريبة لدى الشاعر في إثراء الدلالة؛ حيث تتضمن الكلمة الغريبة

جوانب دلالية قد لا تحيط بها بعض الكلمات المألوفة، ومن الظواهر: تكرار الكلمات والمواد الاشتقاقية (جناس الاشتقاق)؛ وقد أدّت هذه الظاهرة دورين: دلالي وجمالي، ومن الظواهر اللفظية كذلك: أن الشاعر قد أحسن في توظيف الأسماء والأفعال وتوزيعها بين السياقات المختلفة والأفكار التي تقتضيها، كما شاع لدى الشاعر إيراد النعوت (الصفات) وتعددها – أو تعدد الخبر – لتعميق الفكرة أو تفصيلها أكثر، وختمت هذه الظواهر بما لحظته من غياب الملامح الإسلامية في شعر أبي ذؤيب، وقد ناقشت هذه القضية في موضعها من البحث.

أما تقويم الظواهر المتعلقة بالتراكيب: فأولها: ما يتعلّق بتكرار التراكيب – على مستوى النص الواحد، وعلى مستوى شعر الشاعر، ومع غيره من الشعراء، ويأتي بعد ذلك: الروابط بين الجمل؛ إذ أحسن الشاعر استخدام الروابط ولا سيما الفاء، ثم تناولت ظاهرة الاستفهام في المطالع؛ حيث تؤدي دورًا في جلب انتباه المتلقي، وقد وردت هذه الظاهرة في ما يقارب ثلث نصوص الديوان.

وانتقلت بعد ذلك للحديث عن تقويم الظواهر المرتبطة بالصور، وقد كان أول ما لحظته منها: تكرارها – على مستوى الديوان، ثم تناولت شيوع التشبيهات لدى الشاعر، إذ تشكل الغالبية العظمى من الصور الجزئية لديه، وعرضت كذلك لجانب الجدة والطرافة لدى الشاعر في بعض الصور، واحتفائه بصورة الحيوان، التي أتت في معظم ورودها كاشفةً عن نظرة الشاعر للحياة ورؤيته للصراع بين الموت والأحياء، كما لحظت أن بعض الصور لدى الشاعر جاءت لتؤدي وظائف – إضافةً إلى وظيفتها الأصلية في سياقها – وأبرز ما وجدته من هذه الوظائف: أنها تؤدي دورًا في الربط بين الأغراض الشعرية ضمن القصيدة الواحدة، وأنها ترد أحيانًا لتعمّق الغرض الشعري، وجاءت ظاهرة التفصيل في الصورة (الصورة الاستدارية) في ختام هذه

الظـواهر المتعلقـة بالجانـب التصـويري، وقـد أكثـر أبـو ذؤيـب مـن أسـلوب "الصـورة الاسـتدارية" مقارنـةً بغيره مـن الشـعراء، وبـرع فيهـا بحيـث عكسـت تمكّنه الشعري.

وختمـت هـذا الفصـل بتقـويم الظـواهر الإيقاعيـة، وأبرزهـا: تناسـب الصـوت مـع المعنـى، وقـد نجـح الشـاعر في توظيـف الأصـوات لخدمـة معانيـه المختلفـة، ومـن الظـواهر كـذلك: العـدول عـن التصـريع؛ حيـث تـرك الشـاعر التصـريع في ثلاثـة أربـاع نصوصـه تقريبًـا، وختمـت بالحـديث عـن نسـب ورود البحور الشعرية، وقد تبيّن بعد الإحصاء أن شعر أبي ذؤيب لم يخرج عن ستة بحـور (الطويـل والبسـيط والكامـل والـوافر والمتقـارب والرجـز)، وقـد مثّـل الطويل ما يقارب نصف شعره، وتقاربت نسب ورود البسيط والكامل والوافر والمتقارب، وأتى الرجز بنسبة لا تكاد تُذكر.

وقـد ضـمّنت هـذا الفصـل بعـض المقارنـات بـين بعـض الأبيـات للشـاعر وأبيات غيره من شعراء عصره، كما ذكرت بعض المآخذ التي أخذها القدماء على أبي ذؤيب.

obeikandl.com

النتائج

وقد قادني هذا البحث إلى عدد من الاستنتاجات، أبرزها:

1. الترابط والوحدة العضوية في كثير من نصوص الشعر العربي ولمسنا ذلك في أدوات الربط التي كانت وشائج بين أغراض النص.
2. التأكيد عمليًّا على إمكان استثمار الأسلوبية وتطبيقها على الشعر العربي الجاهلي والقديم في الدراسات النقدية الحديثة.
3. الثراء الذي يتسم بها شعرنا القديم، ولا سيما ما يتعلق باللغة واكتمال الأدوات الفنية؛ مما يجعل هذا المخزون الشعري مؤهلاً بدرجةٍ كبيرةٍ لأن تنهض عليه العديد من الدراسات النقدية؛ إذا تجاوز الباحثون ما يتعلق بصعوبة لغته وتعبيراته.
4. ألقت هذه الدراسة الضوء على الظواهر الأسلوبية التي تسترعي الانتباه لدى الشاعر؛ ولعل من أبرزها خصوصًا: ظاهرة تكرر المواد اللغوية (جناس الاشتقاق)، وظاهرة "الصورة الاستدارية" التي تعد نمطًا متقدمًا من التصوير برع فيه أبو ذؤيب، وفي هذا ما يؤكد الفنية العالية والشعرية المتميزة للشعر الجاهلي، ومما يلفت النظر كذلك في شعر أبي ذؤيب: غياب الملامح الإسلامية الناتجة عن تأثر الشعراء بلغة الدين الجديد، وتشكل هذه السمة ظاهرة غريبة في شعره تستحق الوقوف عندها وتفسيرها.

وأخيرًا: أرجو أن أكون قد قدمت في هذا البحث المتواضع شتلة في بستان العربية الغنّاء، وأن أكون قد حققت ما وعدتهم به من خدمةٍ اللغة العربية واستثمارٍ لها في دراسةٍ نقديةٍ حديثة؛ لعلها تضيف جديدًا في مجالها، وأن تفتح أفقًا للبحث البلاغي النقدي.

obeikandl.com